▪ ختام ▪

obeikandl.com

قضايا معاصرة بعد صحبة مباركة

obeikandl.com

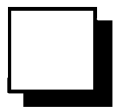

فى هذه اللحظات التى أطوى فيها صفحات أخيرة، وأضع لمسات نهائية، وأجمع مجلدات وكتب وقصاصات التى إليها يرجع الفضل كله فى إتمام هذا الكتاب.. تمهيداً لدفعه إلى المطبعة.. أحس أننى أودع أساتذة لى وللجيل كله، أسهموا بدم القلب، ووهج الفكر، وصلابة الفولاذ فى تكوين العقل المصرى الحديث.. وهو فى سبيل وعيه ويقظته.. وأضاءوا صدر الإسلام، وما بعده من عصور، بلوامع أفكارهم المجددة.

ومع أننى أدرك الآن أننى أودع هذا الرعيل الفذ من الرواد.. إلا أننى لا أشك لحظة فى أننى قد اقتربت من فكرهم، فعشت معهم ولهم أياماً وليالى. وكم كانت صحبتهم عظيمة مباركة.. ضاعفت من تعلقى بهم وحبى لهم. لذلك أجد نفسى أناجيهم واحداً واحداً. وكأنى أدير معهم وعنهم ولهم حديثًا.. تطل منه الكثير من القضايا.. التى تشغل فكرنا العربى الإسلامى فى الآونة الأخيرة وأبدأ بالدكتور طه حسين. وقد يغفر لى أنداده من جيل الأساتذة الأفذاذ أن أبدأ به.. إذ كنت قد شرفت مراراً بالحديث معه فى حياته أكثر من غيره.

طه حسين.. يا من وفدت إلى دنيا الأدب والفكر فى بدايات هذا القرن، واستحدثت نظرية جديدة فى تقييم تراثنا العربى القديم، فغضب عليك قوم، ورضى عنك آخرون. ولكن يشهد الجميع أنك حركت الحياة الادبية من سكون غير مقصود. كما يشهد الجميع أيضًا أنك لم تنس يومًا أصالة اللغة العربية ولا الثقافة العربية ولا الحضارة العربية، وإن أكثر ما فزعت منه هو الانصراف عن هذه الأصالة. وكم نبهت فى أعمالك ومواقفك وأحاديثك إلى تلاميذك لضرورة التمسك بهذه الأصالة. وقد كان ضمن التمسك بهذه الأصالة.. الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى بشكل يتيح للقارئ العربى المسلم المعاصر.. أن

يعرف أسرار عظمة هذا التاريخ.. المتوارية وراء المتون ومتن المتون. ألست أنت القائل عن فكرنا القديم: «مقومٌ لشخصيتنا، محققٌ لقوميتنا، عاصمٌ لنا من الفناء فى الأجنبى، معينٌ لنا على أن نعرف أنفسنا..»؟! وألست أنت القائل أيضًا عن الحضارة الأوربية الحديثة: «والذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا خيرًا خالصًا يخطئون، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرًا غير قليل»؟! وألست أنت القائل عن أدبنا القديم: «ليس الأدب العربى أقل حياة من الآداب الأجنبية مهما تكن، وليس الأدب العربى أقل صلاحًا للبقاء واستحقاقًا للعناية الخصبة والدرس المنتج من الآداب الأجنبية مهما تكن، وكل عيب الأدب العربى أنه كمجهول لا يحسنه أصحابه ولا تعمقونه»؟!.

أبعد ذلك يأتى من يتهمك فى لسانك العربى وثقافتك العربية وحضارتك العربية؟!

❁❁❁

وأنت يا عملاق فكرنا العربى. يا من تعرفك لغة الضاد بهذه الصفة بلا منازع.. فحين يذكر العملاق لابد أن نتذكر العقاد.. صفة لم يمنحها لك حاكم أو سلطان، وإنما منحها لك جهدك وعملك. يا من عشت فقيرًا ومت فقيرًا، ولكن كنت أغنى الأغنياء.. بغنى النفس ورفعة الكرامة. يا من تركت للفكر العربى كتبًا تزيد كل يوم لتغطى كل جوانب المعرفة.. وكأنك تأخذ بأيدينا حتى بعد أن فارقت الحياة.. أسألك وكثيرًا ما كان قراؤك يسألونك.. نعم.. أسألك فأنت الغارب عنا بجسدك، الحاضر بيننا بفكرك: هل صحيح أن أدبك ونقدك كان يبعث على الضحك كما يحلو لبعض من يكتب ويسجل صفحات من تاريخنا الثقافى فى قاعات الجامعة؟! وهل صحيح أنك انتهيت فى نهاية ثلاثينيات هذا القرن واستخرجوا شهادة وفاتك، عندما بدأت تفكر فى التاريخ للإسلام، كما يحلو لبعض آخر أن يكتب فى صحافتنا؟! وهل صحيح أنك لم تكن مفكرًا عملاقًا، وإنما كنت فتى أسوانيًا مشاغبًا، كما يحلو لفريق ثالث أن يسجل من خارج الحدود، سواء فى الجامعة أو فى الصحافة؟!

هل، وهل، وهل.. علامات استفهام كثيرة.. لماذا ترانا نقلق بها خلودك السرمدى. وفكرك باقٍ وقادرٍ على أن يرد.. ليقول للجميع أنك على الرغم منى ومنهم عبقرية خالدة على مر الزمن.. تستطيع بما تركت من آثار أدبية وفكرية أن تدفع عنك هذه الأباطيل والافتراءات.

●●●

وأنت يا أحمد أمين.. يامن كنت تحمل بين جنبيك نفساً ثائرة، وإرادة متحررة، وفؤاداً ذكيًا متوهجًا، وعقلاً متحفزاً للانطلاق والوثوب.. أنت يا عقل الحياة الإسلامية وفيلسوفها وحكيمها.. أنت يا من أرّخت للعقل الإسلامى فى فجره وضحاه وظهره.. فى مجلدات كبار هى مراجع لكل من أضناه البحث عن هذا العقل فى نشوئه ونضوجه وارتقائه.

إن فكرك الشامخ لن يبالى بادعاءات بعضٍ ممن يرى أن مواردك فى الحكم على العقلية العربية فى العصر الجاهلى وما بعدها، إنما صدرت بها عن المستشرقين من أمثال «أوليرى» فى كتابه «بلاد العرب قبل محمد»، فالذى يقرأ فكره ويقارنه بفكر هذا المستشرق، يجد تبايناً واختلافاً ويجد دقة وسعة فى الحكم أبعد بكثير من هذا المستشرق أو غيره، والأكثر يجد أسلوبك فى تاريخ هذه الحياة العقلية فى الإسلام نموذجًا هاديًا لكل باحث متنور ينظر بالعقل إلى العقل الإسلامى.

إن انتشار كتبك الإسلامية على هذا النحو، أثبت أن الفكرة العميقة لا تتعين أن تكون ملفوفة فى رداء من الغموض، وأن دقة التفكير لا تتعارض مع رهافة الحس وعمق الشعور.. هذا أنت وهذا أسلوبك وتلك فلسفتك.

●●●

وأنت يا مؤرخ «حياة محمد» (صلوات الله وسلامه عليه).. أنت يا من بدأت حياتك العملية محاميًا تدافع عن حق تراه مشروعًا، وبدأت حياتك الفكرية قصاصًا يعرض للمشكلة فى حياة الإنسان ويبحث عن الحل، وقد يقتضيه الأمر فى كثير من الاحوال أن يدافع عن حق هذا الإنسان إذا كان مهضومًا.. أنت يا

أستاذنا الدكتور محمد حسين هيكل.. هل كان من العسير عليك أن تقتحم ميدان السيرة التاريخية مدافعًا عن الإسلام ونبيه الكريم ورجاله العظام ومبادئه ونظمه، وأن تضفى مسحة فنية تحيلها إلى عمل روائى لا تخلو صفحاته من إعمال للفكر وتحريك للعقل؟! هل كان من العسير عليك ذلك دون التأثر ـ كما يدعى بعضهم ـ بروايات الغرب.. وأنت فى الأصل ما كتبت إلا لكى تدحض هذه الروايات وتسخر من سذاجتها؟! هل كان من العسير عليك أن يكون أسلوبك سلسًا ممتعًا وليس جافًا مستعصيًا ـ كما يدعى بعضٌ آخر مستندًا إلى قصة حدثت بينك وبين طه حسين ولطفى السيد ـ حول أسلوبك فى بدايات حياتك الفكرية رويتها أنت على سبيل التندر والصدق مع النفس؟! وهل كان من العسير علينا نحن المتلقين لفكرك وأدبك ألا نعطيك حقك، فلا يعرف متخصصو أدبك وفكرك متى بدأت تكتب فى الإسلام، ويجعلون العقاد ـ الذى بدأ يكتب الإسلاميات فى الأربعينيات من هذا القرن ـ يسبقك مع أنك بدأت فى الثلاثينيات؟! هل كان من العسير علينا أن نعطيك حقك لا أكثر ولا أقل؟!

❁❁❁

وأنت يا جاحظ القرن العشرين ـ هل تعرفونه؟!.. إنه مصطفى صادق الرافعى ـ أنت يا من كتبت للعربية بلسان عربى مبين تفكيرًا وأسلوبًا. يا من عدّك مؤيدوك ومعارضوك على السواء: حلقة من حلقات تطور الأدب العربى الحديث.. فأنت تمثل ذلك التيار العربى فى نصاعته وأصالته. نعم.. أنت يا من عدّك نقادك ومؤرخوك تيارًا كان لابد من وجوده لإحداث هذا التوازن فى الثقافة العربية.

لقد اختلفت الآراء فى نثرك وشعرك وفكرك، وقامت بسبب ذلك معارك ومساجلات لم تنته بعد.. إلا أنك على الرغم من هذه الاختلافات التى تترجم أحيانًا إلى صفحات وكتب لم تنل حقك فى الدراسة والبحث. هل كان ذلك بسبب خصومتك لعملاقين كبيرين هما طه حسين والعقاد فى حياتك؟! وهل

تلحقك هذه الخصومة بعد موتك فتصيبك بنوع من الجحود والأذى، حيث كان بعضهم يهاجمونك إرضاءً للعملاقين الكبيرين فى حياتهما، ويتجاهلونك إحياءً لذكراهما بعد مماتهما؟ ولماذا لا يبحث هؤلاء وهؤلاء عن جوانب فيها تقدير لك حتى من العملاقين ذاتهما. بوصفهما كانا أكثر الناس معرفة لك ولفكرك؟! إن ما حدث من معارك وخصومات كان أولى أن يثرى أدبنا ويغنيه، لا أن يتنكر لرجاله وأفذاذه ويتجاهلهم!

●●●

وأنت يا سليل إحدى الأسر المصرية فى الجاه والسلطان والثراء.. يا من كنت صادقًا مع نفسك ومع قرائك حيث كتبت كتابًا هو «الإسلام وأصول الحكم»، وكنت صادقًا أيضًا مع نفسك حين لم توافق على إعادة طباعته فى حياتك. وفضّلت إن حدث ذلك فليكن بعد أن تفارق روحك هذه الحياة. أنت أيها الشيخ المتنور على عبد الرازق.. كم كنت فى مقصدك صادقًا، وعلى مبدئك صامداً، وعن أفكارك مدافعًا.. وكم كنت عظيماً فى كل ذلك، الأمر الذى يجعل التاريخ يغض الطرف حتى عن بعض هذه الهنات التى جاءت ـ بقصد أو بغير قصد، منك أو بتأثير من غيرك ـ على صفحات كتابك «الإسلام وأصول الحكم»، وأن يغض هذا التاريخ الطرف أيضاً عن هذه الكتابات التى حمّلت فكرتك فى الكتاب بأكثر مما تحتمل، فضاعفت ـ عن غير قصد ـ من إدانتك. حين جعلت السلاح الذى تشهره فى وجه الآخرين سلاحًا يهددك أنت أيها الشيخ الذى ظل عشر سنوات حتى وفاته صامتًا لا يتكلم عن هذا الكتاب..

لك التقدير من أجيال تقرأك الآن، وترى فى فكرك مجالاً خصبًا للمناقشة حتى بعد مئات السنين.

●●●

وأنت يا من تحيا بيننا بجسدك وفكرك..يا من أتيح لنا أن نقترب من رحاب فكرك وعالمك فى مبنى واحد من الأهرام.. يا من تشيع الفكر بين تلاميذك

ومريديك الذين يتوافدون عليك صباح كل يوم فى الطابق السادس من مبنى الأهرام. إن هذا الطابق ينتسب إليك، مع أنك لا تحتل فيه أكثر من غرفة متواضعة بين عشرات غرفه. لكن هذه الغرفة هى المقصد، وهى الهدف، وهى منبع الفكر والأدب والفن.. وهى إطلالة حضارية فى هذا المبنى. ففى هذه الغرفة يمر التاريخ.. وحين يمر التاريخ يترك بصماته، وكم تكون هذه البصمات ثابتة لا تغيرها الأيام والليالى!.. أنت يا حكيم مصر المعاصر توفيق الحكيم.. كم كنت عظيمًا فى دفاعك المجيد عن دينك الإسلامى، على الرغم من سهام الهجوم التى تأتيك عن غير تبصر.. فلم يغريك قربك من الأجنبى ـ حياته ولغته ـ أن تنسى دفاعك عن دينك بنفس السلاح والأسلوب الذى استخدمه الأجنبى.. فكتبت وحمّلت أدبك وفنك مسحة إسلامية مؤمنة.. وكنت من المتقدمين الذين أرّخوا للرسول الكريم بأسلوب يمتزج فيه الفكر والعاطفة.

●●●

وأنت يا شيخ الفلاسفة كم أحبك ويحبك عشرات الآلاف من تلاميذك فى الجامعة.. أساتذةً كانوا أو طلاباً .. نحبك فى غضبك علينا الذى يأتينا دون قسوة أو أذى. ونحبك فى صرامتك العلمية التى اكتشفنا ـ على الرغم من معاناة بعضنا ـ أنها تصوغ أفكارنا، ونحبك حين كنت تجلى لنا صفحات من تفكيرنا الإسلامى القديم. فتقدمها لنا فى نظريات وقواعد وأسس.. تبز نظريات الغرب وقواعده وأسس تفكيره. وتكشف لنا كم كان كبار مفكرى الغرب عيالاً على المفكرين الأوائل من المسلمين.

أنت يا شيخنا إبراهيم مدكور كم يضيق الباحث طول بحثه عن إنجازاتك.. هل يبحث عنها داخل الجامعة؟! هل يبحث عنها تحت قبة البرلمان؟! هل يبحث عنها فى عدد من السنين تجاوز الأربعين سنة قضيتها بين جدران مجمع الخالدين باحثا وكاتبًا وأمينًا ورئيسًا للمجمع؟! هل نبحث عنك فى بحار ليس لها ضفاف من الإنجازات هنا فى مصر أو فى العالم العربى أو فى الهيئات العلمية العالمية؟!

●●●

وأنت يا أبو العلماء.. يا من سخرت حياتك لتبسيط المادة العلمية وتأديبها. لكى تخاطب القلب كما تخاطب العقل. أنت يا من كان يحلو لبعضهم من الأدباء أن ينادونك بالقول عالم الأدباء، ويحلو لبعضهم الآخر من العلماء أن ينادونك بأديب العلماء. أنت يا كل هذا! هل تبالى بتجاهل أهل العلم وأهل الأدب لآثارك الأدبية والعلمية؟!.. فحتى لحظات كتابة هذه السطور، لم نلمح مؤلفًا واحدًا يسجل إنجازاتك فى ميدان العلم وميدان الأدب!.. ولقد نادى كاتب هذه السطور، الذى أتيحت له فرصة الاقتراب من فكرك وعالمك يوماً، حين كنت تقضى إجازتك السنوية فى بلدك مصر ـ وبالتحديد فى ضاحية المعادى ـ الذى شرف بأن تجمعه وإياك شارع واحد.. لقد نادى على صفحات الأهرام فى ذكراك الرابعة داعيًا هؤلاء الأدباء والعلماء أن هبوا وتذكروا أديب العلماء وعالم الأدباء.

لقد فعلت عظيمًا حين قربت مفهوم الإسلام إلى العقول قبل القلوب، وناديت بفكرة «آيات الله متمثلة فى خلقه»، فكنت أنت رائدًا فيما نعرفه اليوم بالإيمان العلمى، والذى كلما ذكرناه تذكرنا على الفور الدكتور أحمد زكى.

●●●

وأنت يا صاحب المدرسة الأدبية التى كان لها عظيم الفضل فى توجيه حياتنا العلمية داخل الجامعة كأساتذة، وحياتنا الثقافية خارج الجامعة.. كجماعة الأمناء التى يحمل أغلبها القلم اليوم.. أنت يا من أتذكر حديث الرسول الكريم كلما قرأتك... هذا الحديث الذى يذهب إلى أنه سيأتى فى الأمة الإسلامية مجددًا كل مائة عام يجدد تفكيرها الإسلامى، ويقف بالمرصاد مدافعًا عن هذا الدين الحنيف الذى قامت على أكتافه حضارة أنارت أوربا فى أحلك عصورها ظلامًا. لقد ناديت بالتجديد من داخل الإسلام نفسه وليس دخيلاً عليه.. تجديدًا يكون هدية القرآن الكريم والسنة الشريفة، واجتهاد السلف الصالح.. حين نتذكر كل ذلك فلابد وأن نذكر الأستاذ أمين الخولى.. رحمه الله.

●●●

وإذا كنا نذكر كبارنا الأفذاذ أولئك الذين جحدنا فضلهم وتنكرنا لإنجازاتهم.. فعلينا أن نذكر شيخ المؤرخين الإسلاميين، الأستاذ عبد الحميد العبادى.. يالك من أستاذ عظيم تركت بصماتك ـ على الرغم من كل شىء ـ على أساتذة للتاريخ الإسلامى نراهم وقد اعترفوا بفضلك فى سطور قليلة.. ذرًا للرماد فى العيون، وحفاظًا على الأمانة العلمية، واعترافًا بحق الأساتذة الرواد..

يالك من نمط فريد من أساتذة الزمان. لم تترك آثارًا علميةً كثيرةً.. بل تركت عقولاً هنا فى مصر وفى العالم العربى، تدين لك ولأسلوبك ولمنهجك بالفضل.

يالك من أستاذ صادق.. وفيت بما عاهدت عليه زميليك طه حسين وأحمد أمين.. فى التأريخ للحياة السياسية فى الإسلام.. فظللت تعمل من أجل الوفاء بهذا الاتفاق لآخر يوم فى حياتك، وفى كل المواقع التى عملت بها.. وعلى الرغم من ذلك لا تجد من يذكرك، ويذكر علمك!

❁❁❁

وقبل أن نودع كبارنا لابد وأن نتوقف عند حارس الثقافة العربية الإسلامية.. العلامة محمود محمد شاكر ـ أطال الله فى عمره ـ إن شأن هذا العلامة فى حياتنا اليوم هو نفس شأن الراحل العظيم مصطفى صادق الرافعى، مع اختلاف بسيط هو أن الأستاذ شاكر درس الفكر الغربى وخبره واتخذ منه موقفاً فى أنه حلقة من حلقات تطور الثقافة العربية الإسلامية، تمثل تيارها الأصيل، وهو تيار لابد من وجوده حتى يحدث ذلك التوازن بين الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة، والتيارات الثقافية الأجنبية الدخيلة.

أنت أيها العلامة العظيم.. لقد فرضت على حياتك عزلة أو فرضها عليك بعضهم استمرت قرابة الأربعين عاماً.. كنت أنت صانع هذه العزلة أو غيرك. ولكن حين فككت بعضًا من قيود هذه العزلة.. بإتاحة الفرصة للمحات من فكرك أن تخرج إلى النور.. كنت إمامًا للأدباء وللمثقفين لا فى مصر وحدها،

ولكن فى العالم العربى. وبدأ أبناء هذا الجيل الذى لم تتح له فرصة التعرف عليك. فى الإقبال على كتبك.. وكأنه يقبل على النفيس الأصيل فى ثقافتنا العربية الإسلامية.

بعد ذلك لنتوقف مع هذه القمم والأفكار الإسلامية من المصريين فى هذا الجزء.. مع وعد بلقاء ـ بإذن الله ـ مرة ثانية، وفى جزء ثان مع قمم وأفكار إسلامية على مستوى العالم.. والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير.

obeikandl.com